المحاضرة الثالثة: مضامين شعر الفتوح والجهاد

تمهيد:

لقد كان مجيئ الإسلام إيذانا ببداية عهد جديد، يختلف عن فترة الجاهلية، فقد أحدث تغييرا شمل جميع مناحي الحياة السياسية منها، والدينية والاجتماعية، والثقافية، واللغوية. وقد كان الشعر واحدا من المجالات التي تأثرت بالدين الجديد، فكان للقرآن أثرا واضحا في شعر تلك الفترة من مرحلة صدر الإسلام، والعصر الأموي، وما تلاه من العصور.

يكاد يُجمع أغلب الدّارسين للأدب العربي، في عصر صدر الإسلام، على الأثر البالغ للقرآن على الأدب وفنونه، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي موضحا ذلك: "أثّر الإسلام في الحياة الأدبية تأثيرا كبيرا سواء في ألفاظ اللغة أم في أسلوبها، أم في فنون الأدب المختلفة من شعر ونثر وخطابة وكتابة أم في أغراض كل فن منها"[1]. وهذا الأثر واضح في كل ما وصل إلينا من تراث شعري ونثري، وما قصائد "حسان بن ثابت"، و"عبد الله بن رواحة" إلا خير دليل على تغير الموضوعات والمضامين، ومسايرتها لمنطق القرآن.

الفتوح في صدر الإسلام:

لم تكن الأمة العربية تغير على غيرها من الأمم المجاورة لها في جاهليتها، وحتى في بداية تشكل الدولة الإسلامية، وما أصابها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يكن أحد ينتظر منها القيام بفتوحات كبيرة؛ يقول الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي: "عجيب أن تقتدر أمة ناشئة كأمة العرب المسلمين، تتعاورها الفتن والاضطرابات، وحركات الارتداد والانتقاض من كل جانب، على أن تهدم إمبراطوريتين عظيمتين لتشيد على أنقاضهما إمبراطورية عظيمة، في مدى لا يتجاوز عشر سنوات، تشتمل على العراق والشام جميعًا وتتخطاهما، فتشتمل على فارس ومصر، حتى تبلغ حدودها الصين من الشرق، وتونس من الغرب، وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب"[2].

الفتوح تذكى جذوة الشعر العربي:

هناك من رأى أن الفتوحات أضعفت صوت الشعر في صدر الإسلام، ومنهم الناقد ابن سلام الذي قال: "جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر، تشاغلوا عنه بالجهاد، وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته"[3]. ويعلق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي على رأي ابن سلام قائلا:"وهذا القول الذي يجانب الصواب لم يقتصر على ابن سلام وحده، وإنما تابعه فيه كثير من الدارسين حتى استحال عصر صدر الإسلام لدى بعضهم إلى عصر ركود أدبي، ولدى بعض المعتدلين منهم إلى عصر هدوء أدبي، والحقيقة الواضحة أن الإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشعر وروايته؛ لأنه لم يكن يملك هذا لو أراد. وكل ما كان من آثار لمجيء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته في الحياة

---

[1]– محمد عبد المنعم خفاجي، وآخرون: الأدب الإسلامي المفهوم والقضية، (ط1)، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992، ص72.

[2]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، (ط1)، ص 31.

[3]– ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء،تح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، 1997، ص 51.

العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية، فأخذ يخلع طوابعه الخاصة على الشعر؛ ليتحول من ألهية تتلهى بها طبقة معينة من الناس إلى وسيلة نافعة، تُسخَّر من أجل مجموع المسلمين، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة، وتعمل في سبيل غاياتها ومثلها"[1].

شعراء متنوعون: تنوع الشعراء في فترة الفتوح، حيث انقسموا إلى قسمين:

1- الشعراء القدامى: يقول الدكتور النعمان عبد المتعال القاض يصف الشعراء القدامى في بداية الفتوحات الإسلامية: "خفت صوت الشعر، ولكنه لم يصمت تمامًا، فقد كان هناك شعراء استجابوا لدعوة الإسلام سراعًا، واستبدلوا بمفاهيم الشعر الجاهلية مفاهيم إسلامية جديدة، واستطاعوا أن يتقيدوا بمهمة الشعر التي حددتها المثل الإسلامية، وأن يكتسبوا لأنفسهم أسلوبًا أفادوه من التأثر بالقرآن الكريم، كما فعل أولئك الذين جندوا للتصدي لشعراء قريش. بينما ظلت طائفة منهم لم تسعفهم سلائقهم الشعرية بما طبعت عليه من الإلف للتقاليد الجاهلية المتأصلة بعيدة عن التأثر بهذه المثل، ومن ثم لم يتمكنوا من أن يستبدلوا بها غيرها فكان أن سكتوا عن قول الشعر، حتى كادت ينابيعه أن تغيض في وجدانهم"[2]. وقد شارك في الفتوح عدد كبير من الشعراء القدامى من أمثال "عمرو بن معد يكرب الزبيدي"، و"عبدة بن الطبيب"، و"أبي محجن الثقفي"، و"ربيعة بن مقروم الضبي"، و"أبي ذؤيب الهذلي"، و"عمرو بن شأس الأسدي"، و"قيس بن مكشوح المرادي"، و"عروة بن زيد الخيل الطائي"، و"النابغة الجعدي"، و"الشماخ"، و"الحطيئة"[3].

2- شعراء أنطقتهم الفتوح: غير أن هناك طائفة ثانية من الشعراء، كانت الفتوح الإسلامية سببا في نشاط الذائقة الشعرية لديها، ويصفهم الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي بقوله:" أذكت الفتوح الإسلامية جذوة الشعر العربية، التي خبت حينًا، وقد وجدت وقودًا غذاها فذكت، وانطلق الشعر على ألسنة المحجمين من الشعراء المتحرجين، فقد فتحت لهم الفتوح أبوابًا كثيرًا يدلفون خلالها من قواقعهم، إلى حيث يمارسون التعبير عن ذواتهم، في ظلال فكرة الجهاد التي اجتذبهم لألاؤها فاندفعوا إلى الميادين؛ حيث وضعوا فروسيتهم وشاعريتهم في خدمة الفكرة الإسلامية"[4]. وينقسمون إلى طائفتين، حسب تصور النعمان عبد المتعال القاضي:

أ- طائفة الشعراء المغمورين: وقد كثر شعراء هذه الطائفة كثرة بدأت مع الفتوحات مباشرة، ويصفهم النعمان عبد المتعال القاض بقوله:" وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون في تصورنا قسمين؛ أولهما: طائفة من الشعراء المغمورين، الذين لم يذع لهم شعر فيما قبل اشتراكهم في المعارك، ولم يذع ذكرهم أيضًا قبل ذلك. وقد وجد هذا القبيل فرصته في الفتوح؛ إذ سارت بشعره الركبان، وسجل اسمه في

---

[1]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، (ط1)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر،2005، ص 171.

[2]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 171.

[3]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 179.

[4]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 191.

ذاكرة العرب. وظهرت أسماء جديدة طالعتنا في كتب التاريخ والمغازي لا بريق لها ولا ألفة لدينا، كالأسود بن قطبة التميمي، والقعقاع بن عمرو، وأخيه عاصم، وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي، والأعور العبدي الشني، ونافع بن الأسود بن قطبة التميمي، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن مالك الزهري، وكثير بن الغريزة النهشلي"[1].

ب- الشعراء الناشئون: تشكل طائفة جديدة ليس لهم باع في الشعر مثل الطائفة السابقة،ويطلق عليهم الدارسون اسم "المعبرين عن أنفسهم"؛ يقول النعمان عبد المتعال القاض: "والقسم الثاني من هؤلاء الشعراء يشكلون ظاهرة مهمة جديرة بإنعام النظر، وهم أولئك الشعراء الذين لم يكونوا في الأصل يرتبطون بالشعر في قليل أو كثير؛ ذلك أنهم لم يكونوا ينظمون الشعر أو يعنون به ولكنهم حملوا السلاح وخاضوا المعارك، فإذا بنفوسهم تفيض بالبيت أو بالبيتين أو بالمقطوعة القصيرة تسرية وتنفيسًا وحثًّا لنفوسهم وتحميسًا. وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة"[2]. وهم من الجند الفاتحين؛ "وأكثر هؤلاء الفاتحين المعبرين عن أنفسهم من الجند العاديين، الذين لم يكن متوقعًا منهم أن يعبروا بالشعر عن أنفسهم، ولكنهم أمام روعة الأحداث، والتهاب المشاعر، وجيشان العاطفة لم يملكوا أن يصمتوا، ففاض الشعر على ألسنتهم صادرًا من وجدانهم في عفوية حارة وصادقة، وقد جنت على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم شخصيتهم المنكورة، فاختلط بينهم شعر كثير. ولم ينسب إلى أصحابه قدر كبير منه، فإذا نحن أمام عبارات تتردد لا تحمل دلالة على الشاعر، وإن كانت تجعلنا نشعر أنه شعر شاعر من هؤلاء العاديين من الجند، ك: قال أحد المسلمين، أو: قال أحدهم، أو: ارتجز راجز، وهكذا"[3].ويحصي الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي بعض شعراء هذه الطائفة في قوله: "حفظت لنا الروايات أسماء بعض هؤلاء، من مثل: أبي أحيحة القرشي، وبشر بن ذريح الثعلبي، وعصام بن المقشعر، وبشر بن ربيعة، والأشعث بن عبد الحجر بن سراقة، وجندب بن عمار، وعلياء بن جحش العجلي، والأعرف بن العلم العقيلي، وغيرهم كثيرون. ولعل في أبناء الخنساء الأربعة، وما جاش على ألسنتهم من رجز دافئ في القادسية خير مثال لهؤلاء. وكذلك هؤلاء المحاربون الجرحى الذين اجتمعوا حول نخلة القادسية يناجونها وقد رقت مشاعرهم وهفت نفوسهم إلى أهليهم وديارهم شعرًا بسيطًا معبرًا، وإن ضاعت أسماء بعضهم، فيروى البيت الأول لبجير "كذا"، والآخر لرجل من تميم، والثالث لغيلان، أخي بن ضبة، وهكذا"[4]. ومن نماذج أشعارهم، قول بشر بن ربيعة في معركة القادسية: [5]

أنخـــت بببـــاب القادســـية نـــاقتي وســـعد بـــن وقـــاص علـــيَّ أميـــر

وســـعد أميـــر شـــره دون خيـــره وخيـــر أميـــر بـــالعراق جريـــر

---

[1]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 192.

[2]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 193.

[3]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 193-194

[4]- النعمان عبد المتعالي القاضي: المرجع نفسه، ص 194.

[5]- أبو العباس القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1971، ص 52.

وعنـــد أميـــر المـــؤمنين نوافـــل وعنـــد المثنـــى فضـــة وحريـــر
تـــذكر هـــداك الله وقـــع ســـيوفنا ببـــاب قـــديس، والمكـــر عســـير
عشـــية ود القـــوم لـــو أن بعضـــهم يعـــار جنـــاحي طـــائر فيطيـــر
إذا مـــا فرغنـــا مـــن قـــراع كتيبـــة دلفنـــا لأخـــرى كالجبـــال تســـير
تـــرى القـــوم فيهـــا أجمعـــين كـــأنهم جمـــال بأحمـــال لهـــن زفيـــر

شعراء الفتوح الإسلامية: عرفت فترة الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام نبوغ العديد من الشعراء –كما سلف الذكر في طوائف الشعراء– ومنهم:

1– عمرو بن معد يكرب الزبيدي: أشار النعمان عبد المتعال القاض إلى ظاهرة مست شعر الفتوح، ألا وهي القلة، فقال: "وشعر عمرو في الفتوح قليل جدًّا، لا يتجاوز عدة مقطعات قصيرة، وهذه ظاهرة عامة ينضوي تحتها شعر الشعراء القدامى، الذين اشتركوا في الفتوح جميعها، في قلة ما خلفوا من آثار في شعر الفتح، وينضوي تحتها شعر الفتح كله في قلة عدد الأبيات التي تحتويها المقطوعة"[1].

ويقول أيضا:" ولا يطالع الدارس قصيدة واحدة في شعر الفتح طال نفسها أو تعددت أغراضها –كقصائد الجاهلية– فلا ظروف القتال من جانب، ولا نفسية المقاتل من جانب آخر تتيحان امتداد نفس الشاعر، فتحولت القصائد من ثم إلى مقطعات لاهثة، يصب فيها الشاعر عواطف اللحظة ومشاعرها في سرعة خاطفة، كتلك التي صب فيها عمرو خبر قتله لرستم في ثلاثة أبيات، اشتملت على: تزويد صاحبه بإقراء سلمى صاحبته تحيته، وأن يذكره عندها، ويذكر حبه لها، وأن ينقل إليها خبر قتله رستم، وقصر هذا الشرف عليه وحده دون غيره. ثم يصف الطريقة التي فتك بها بهذا القائد"[2]. كل هذا في تلك الأبيات القليلة التي تقول: [3]

أَلِمِـــم بِســـلمى قبـــل أَن تَظعَنـــا إِنَّ بنـــا مـــن حُبِّهـــا دَيـــدَنَا
كـــأَنَّ ســـلمى ظَبيـــةٌ مُطفِـــلٌ تَرعـــى حِقـــافَ الرَّمـــل مـــن أَرزَنـــا
تَنشُـــرُ وَحفـــاً مُســـبَكِرّاً علـــى لَبَّاتِهـــا أَســـوَدَ مُغـــدَوِدِنا
قـــد علمـــت ســـلمى وجاراتُهـــا مـــا قَطَّـــرَ الفـــارسَ إِلَّا أَنـــا
شَـــكَكتُ بـــالرُمحِ حَيَازِيمَـــهُ والخيـــلُ تَعـــدو زِيَمـــاً بَينَنـــا

ويبدي الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي ملاحظاته على شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي وشعراء الفتوح، فيقول: " إن عمرًا وغيره من الشعراء القدامى كانوا أبعد الشعراء الذين اشتركوا في الفتوح

---

[1]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 216– 217.

[2]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 217.

[3]– مطاع الطرابيشي:شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، 1985، ص 166.

عن التأثر بأية خصائص إسلامية في شعرهم، إذا ما قارنا شعرهم بشعر غيرهم من الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح، فتغنوا بالمثل الإسلامية، وكان شعرهم معرضًا للخصائص التي اكتسبها الشعر من الإسلام"[1].

ويضيف ملاحظات أخرى لخصها في قوله:" وهكذا يمكننا القول: بأن شعر عمرو لم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التي عاشها في الفتوح، وبرغم ضياع شعره فيما نعتقده فإنه لجلي أن شعره الإسلامي في الفتوح لو كان وجد بتمامه لما افترق في شيء عن شعره الجاهلي، وإنما هو استبدل بأيام زبيد أيامًا إسلامية، عبر فيها نفس التعبير الذي كان يعبر به عن غزوات قومه في الجاهلية. ولم يتأثر شعره بالإسلام ولا بالفتوحات، كما لم تتأثر حياته ذاتها إلا بهذه التأثيرات العامة، التي تعرض لها كل شعر الفتوح، من انكماش القصيد وسرعته، وتدفقه في إيجاز وحرارة، فضلًا عن صدقه الشعوري، وحرارة تعبيره، التي لازمت شعره في الفتوح"[2].

2- القعقاع بن عمرو التميمي:

لم يرد في كتب الرواة والعلماء شيئا عن القعقاع بن عمرو التميمي وعن شعره في مرحلة ما قبل الإسلام، ويرى الدكتور النعمان أن شعره مرتبط بالفتوحات الإسلامية، يقول:" فمجموع شعره إسلامي، أو بعبارة أدق: ليس له شعر إلا في الفتوح التي أنطقته بالشعر. وقد أسهم هذا إلى جانب وضوح حياته وبلائه في الفتوح في تواتر شعره، وازدياد الثقة بصحته جميعًا؛ إذ يقترن شعره بحياته خطوة بخطوة، ويتفق مع الأحداث التاريخية اتفاقًا تامًّا"[3]؛ وبهذا يمكن للباحث أن يتخذ شعر القعقاع بن عمرو وثيقة تاريخية يرصد وقائع الفتوحات من خلاله، وقطعة فنية تضاف إلى جملة الرصيد الأدبي العربي، يقول الدكتور النعمان عبد المتعال القاض:" وعلى هذا فشعره يمكن أن يعد وثيقة تاريخية بالغة القيمة، فهو مرآة لأحداث الفتوح التي عاشها الشاعر الفارس وعاصرها؛ حيث تنعكس عليه جميع جوانبها، من تحركات وتحولات وقتال ونصر واستشهاد، ولم يحدث أن تحركت كتيبة من مكان إلى مكان، أو تحولت من ميدان إلى ميدان، ولا من معركة إلى معركة إلا وسجل شعره ذلك، حتى لتختلف الروايات التاريخية في أمر الفتوح الأولى في الشام، وشهود كتيبة خالد هذه الفتوح، فإذا بشعره يسجل الوقائع التي حدثت في الشام مرتبة ترتيبًا زمنيًّا، مبتدئًا بسقوط خالد على بني غسان في ديارهم، متنقلًا إلى بصرى؛ حيث التقى بسائر جند المسلمين ومنتهيًا إلى اليرموك"[4]. ومن أشعاره في وصف معارك الفتوح، قوله: [5]

بـــدأنا بجمـــع الصـــفرين فلـــم نـــدع لغســـان أنفـــا فـــوق تلـــك المنـــاخر
وجئنـــا إلـــى بصـــرى وبصـــرى مقيمـــة فألقـــت إلينـــا بالحشـــا والمعـــاذر
فضضـــنا بهـــا أبوابهـــا ثـــم قابلـــت بنـــا العـــيس فـــي اليرمـــوك جمـــع العشـــائر

---

[1]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 218.

[2]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص 218.

[3]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص 229.

[4]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، ص 229.

[5]- ياقوت الحموي: معجم البلدان،تح فريد عبد العزيز الجندي، دار صادر، بيروت، لبنان،1977،ج05، ص 434.

ويصف الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي العلاقة بين الشعر والمعارك الفتوحات الإسلامية فيقول:"ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها في شعره، مشيدًا ببطولته وبطولة المسلمين، فعل ذلك في الحفير، وفي الولجة، وفي الثني، وفي الحيرة، وفي الحصيد، وفي الخنافس والمصيخ، وعند اليرموك، ودمشق، وفحل، وفي القادسية، والمدائن، وجلولاء، وحلوان، وأخيرًا في نهاوند، ويكاد يكون القعقاع لهذا أكثر شعراء الفتوح شعرًا وأغزرهم إنتاجًا، فله في كل موقعة من هذه المواقع مقطوعة أو أكثر، وينصرف شعره كله في الإشادة ببلائه وبلاء قومه، والإشادة ببطولات الفرسان من أصدقائه ورثائهم، وتصوير قسوة المقاومة التي يلقونها من الفرس وعرب القبائل والروم، والحوادث التي تقع في أثناء المعارك، فضلًا عن أرجازه التي كانت تهيب بالمسلمين أن يتقدموا للقاء أعدائهم. فهو يفخر بفعاله يوم نهاوند، حينما تعقب ركب الفيرزان وقتله عند ثنية العسل" [1].

ويذكر هتكه لبيوت الفرس، ومباغتتهم في قراهم فيقول: [2]

جذعت على الماهات في ألف فارس ... بكل فتى من صلب فارس خادر
هتكت بيوت الفرس يوم لقيتها ... وما كل من يلقى الحروب بثائر
جست ركاب الفيرزان وجمعه ... على فتر من جرينا غير فاتر
هدمت بها الماهات والدرب بغتة ... إلى غاية أخرى الليالي الغوابر

ويتناول هذه الوقعة في مقطوعة أخرى، يصور فيها متابعته للفيرزان، وما كان من سقوط الفرس في خندق نهاوند، المسمى وادي خرد، فيقول مفتخرًا بصنيعه: [3]

ويوم نهاوند شهدت فلم أحم ... وقد أحسنت فيه جميع القبائل
عشية ولي الفيرزان موايلا ... إلى جبل آب حذار القواصل
فأدركه منا أخو الهيج والندى ... فقطره عند ازدحام العوامل
وأشلاؤهم في وادي خرد مقيمة ... تنوبهم عبس الذئاب العواسل

وقد تناول هذه المعركة كرة أخرى، مفتخرًا بقومه الذين أبلوا معه فيها بلاء حسنًا، وكأنه يدفع عنهم اتهامًا بالتقصير، ويعدد فعالهم بالفرس يوم نهاوند فيقول: [4]

رمى الله من ذم العشيرة سادرا ... بداهية تبيض منها المقادم
فدع عنك لومي لا تلمني فإنني ... أحرط حريمي والعدو الموائم
فنحن وردنا في نهاوند موردا ... صدرنا به والجمع حران داحم
ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا ... لشر ليال أنتجت للأعاجم

---

[1]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 228.
[2]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج05، ص 48.
[3]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج05، ص 356.
[4]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج05، ص 314.

فـــنحن لهـــم بينـــا ونصـــل ســـجلها غـــداة نهاونـــد لإحـــدى الفطـــائم

ملأنـــا شـــعابا فـــي نهاونـــد مـــنهم رجـــالًا وخـــيلًا أضـــرمت بالضـــرائم

وراكضـــهن الفيـــرزان علـــى الصـــفا فلـــم ينجـــه منهـــا انفســـاح المخـــارم

ألا أبلـــغ أســـيدًا حيـــث ســـارت ويممـــت بمـــا لقيـــت منـــا جمـــوع الزمـــازم

شعر الفتوح أنواعه وموضوعاته:

قصيد ورجز:

هناك علاقة بين شعر الرجز وعواطف الفرسان والجنود في أرض المعركة ويلخص النعمان عبد المتعال القاض هذه العلاقة في قوله:"حقًّا كانت فكرة الجهاد تجذبهم بألقها، وتدفعهم إلى استرخاص أرواحهم في سبيلها، مؤمنين بنصر الله وبما وعدوا من الجنة وحسن المآب، ولكن العواطف الإنسانية المختلفة لا بد أن تثير فيهم هذه المشاعر، في مثل هذا الموقف الرهيب. ومهما كانت مشاغل الفاتحين واهتماماتهم عظيمة وضخمة، فإنها لا بد أن تضيق عن استنفاد مثل هذه المشاعر، ولا بد أيضًا لهذه المشاعر أن تجد منفذًا تتسرب خلاله طاقاتها، فيفرج عن الفاتحين بعض ما تزخر به جنباتهم، ويعبرون فيه عن هذه العواطف وتلك المشاعر"[1].

وقد استنفد التعبير الشعري كل هذه الطاقات النفسية واستوعبها؛ إذ انطلق الشعر على كل لسان، وقدمت الفتوح بانتشارها وتمددها لهؤلاء الفاتحين مادة هذا الشعر في أحداثها، وما تثيره من أحاسيس في هذه البيئات الجديدة، وما عانوا فيها من ابتعاد عن بيئتهم . وقام الشعر بهذه المهمة خير قيام، وإن طبع بطوابع أملتها عليه الظروف القاسية للمعارك وتلاحقها وعنفها، فاتسم بخصائص معينة في شكله ومضمونه[2].

ويحدد الدكتور النعمان "ومن اليسير أن نتتبع أنواع هذه المنظومات، وأن نجمعها في نوعين كبيرين من حيث الشكل الفني، وهما :القصيد والرجز. فمع أن الرجز ليس إلا وزنًا من أوزان الشعرالشعر، وليس له قالب مستقل بذاته، إلا أننا نميل إلى جعله نوعًا مستقلًّا من أنواع التعبير؛ لمخالفته للشعر في شكله العام، وفي اقتصاره على أبواب معينة وموضوعات بذاتها، فضلًا عن تميزه بدور كبير في ظروف القتال، لم يتسن للشعر، في التحميس ورفع روح المحاربين، إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين، الذين أنطقتهم الفتوح، وهم كثرة كثيرة. بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء، وإن كان لم يحتفظ بخصائص الشعر العربي التقليدية، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات"[3]. ويقول في خصائص شعر الفتوح:" وفي الحقيقة: إن شعراء الفتوح جميعًا قد خضعوا خضوعًا متماثلًا للطوابع التي طبعت بها الفتوح شعرهم جميعًا، ففضلًا عن تركز اهتماماتهم

---

[1]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 238.

[2]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 238.

[3]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 238.

ونوازعهم في المسئولية الضخمة التي يحملونها، فإن ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكن لتعينهم على التنفس الغنائي الهادي، والتعبير الوجداني المنساب، في قصائد متأنية مديدة النفس، ولهذا كان تنفسهم سريعًا لاهثًا ومتلاحقًا، وخاطفًا ومحدودًا في مضمونه وفي شكله بطبيعة الحال، فاتخذ القريض شكل المقطعات القصيرة. واستتبع هذه الإطاحة بمقدمات القصائد التي تعتبر من أهم تقاليد الشعر العربي، الموروثة عن العصر الجاهلي، والتي ظلت تحكم الشعر ردحًا من الزمان، ولم تفلح الثورات الأدبية في الإطاحة بها بعد ذلك"[1]. ويضيف قائلا: "ومهما كان رأي الباحثين في هذه المقدمات الطللية والغزلية من أنها ترتفع بالشاعر إلى بيئة شعرية رفيعة يخرج فيها عن أطوار الحياة الواقعية المادية إلى عواطف الحنين والشوق مما يعده للغناء، فإن الشاعر كان يجد فيها بلا ريب متنفسًا للحديث عن ذاته، وإشباعًا لمنازعه الفردية، قبل أن يشغل بغرضه الذي كان ينصرف دائمًا إلى الفناء في وجدان القبيلة بحكم وضعه الاجتماعي. والأمر مختلف في الفتوح، فليس هناك ما يدعو إلى أن يختلق الشاعر في مقدمات قصيده، ما يكون مسربًا لفرديته؛ إذ ليس هناك حرج في أن يشيد الشاعر بذاته، ويعبر عن فرديته داخل إطار الجماعة الإسلامية تعبيرًا حرًّا، دون النجاء إلى المقدمات التي لا بد أن تشغله في مثل هذه الظروف المضطربة السريعة الأحداث عن التعبير المباشر"[2]. ومن أهم خصائص شعر الفتوح ما جاء في قول الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي: "إن الشاعر المجاهد ليريد –قبل أن يشعر أنه يريد– أن ينفض ما بنفسه ابتداء دون تقيد بتقاليد أو تمسك بنظم في التعبير، إلا ما يفرضه طبيعة الإحساس النفسي، والحالة الشعورية التي تتقمصه ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة، تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع وأدى هذا إلى جانب انطلاق الشعر على ألسنة الكثيرين من الفاتحين العاديين إلى أن يكثر الرجز، وأن ينفك عن وظيفته التي كانت له في الجاهلية كأداة للتحميس، وشحذ القوى وإلى أن يشارك القصيد في التعبير عن بعض موضوعاته التي تخرج عما ألفه الرجز في الجاهلية من الحرب والمفاخرة والحداء، فكاد يكون قسيم الشعر القصائدي، وإن ظل في شكله ومضمونه لا ينم عن إعداد أو عناية؛ نتيجة قربه من السليقة الفطرية للعرب، وارتجاله في المواطن المختلفة، وإن ظلت له نفس المهمة في التحميس. وسوف نرى أنه لم يقصر عن خوض الموضوعات التي خاضها الشعر إلا في القليل الذي لا يتفق وإيقاعه العنيف"[3].

موضوعات قديمة متطورة:

شعر الجهاد:

يقول الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي عن موضوعات شعر الفتوح وموضوعاته:"تغنَّى الشعر كما تغنَّى الرجز بموضوعات بعضها قديم تداوله الشعر العربي على اختلاف عصوره كالحماسة والرثاء،

---

[1]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 238.

[2]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 239.

[3]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 240– 241.

وبعضها الآخر جديد، لم يعهده الشعر العربي قبل الفتوح. فشعر الجهاد وإن جال في تصوير ظروف الفتح الجديدة فإننا لا نستطيع أن نعده بابًا جديدًا من أبواب الشعر، وكذلك الرثاء؛ إذ إن لهما جذورًا في الشعر العربي ثابتة، وغاية الأمر أن هذه الظروف الجديدة قد كست هذين اللونين من الشعر صبغًا جديدًا فتطورًا قليلًا، وإن دلا على تأثرات جديدة؛ فإن أصلهما واضح جلي في الشعر العربي. ونعني بشعر الجهاد ذلك الشعر الذي يهدف إلى الإشادة بما كان من إقدام الجند أو الكتيبة أو الشاعر، أو صديق له أو زميل، أو قائده أو عدوه. وعن كل هذه الطرق يعبر الشاعر عن قسوة المعارك، وضراوة القتال، وشدة اللقاء، وما كان يحدث في أثناء المعارك من إقدام أو إحجام، وما قد تنتهي إليه من نصر أو هزيمة، وما يكون بعد ذلك من فخر أو تصميم على الثأر والانتقام، بينما قد يكون تصوير المعارك وما تشتمل عليه طريقًا إلى الإشادة بالنفس أو بالغير، وهكذا"[1]. وهذا الموضوع هو أكثر موضوعات الشعر التي بين أيدينا ترددًا واتساعًا، ومن أمثلة هذا الشعر الذي يشيد ببلاء الجماعة الإسلامية وبسالتها وإيقاعها بالعدو قول خليد بن المنذر في يوم طاوس: [2]

بطـــاووس ناهبنـــا الملـــوك وخيلنـــا ... عشـــية شـــهراك علـــون الرواســـيا
أطاحـت جمـوع الفـرس مـن رأس حـالق ... تـــراه كمـــوار الســـحاب مناغيـــا
فـــلا يبعـــدن الله قومًـــا تتـــابعوا ... فقـــد خضـــبوا يـــوم اللقـــاء العواليـــا

وقد يجعل الشاعر تصوير المعركة سبيلًا إلى تصوير بلائه والإشادة بنفسه، كقول نعيم بن مقرن قائد المسلمين في وقعة واج روذ بهمذان، التي تصدى فيها "لموتا" قائد الفرس ونكل به تنكيلًا، قال: [3]

ولمـــا أتـــاني أن "موتـــا" ورهطـــه ... بنـــي باســـل جـــروا جنـــود الأعـــاجم
نهضـــت إلـــيهم بـــالجنود مســـاميا ... لأمنـــع مـــنهم ذمتـــي بالقواصـــم
فجئنـــا إلـــيهم بالحديـــد كأننـــا ... جبـــال تـــراءى مـــن فـــروع الغلاســـم
فلمـــا لقينـــاهم بهـــا مستفيضـــة ... وقـــد جعلـــوا يســـمون فعـــل المســـاهم
صـــدمناهم فـــي واج روذ بجمعنـــا ... غـــداة رمينـــاهم بإحـــدى العظـــائم
فمـا صـبروا فـي حومـة المـوت سـاعة ... لحـــد الرمـــاح والســـيوف الصـــوارم
كـــأنهم عنـــد انبثـــاث جمـــوعهم ... جـــدار تشـــظى لبنـــه للهـــوادم
أصـبنا بهـا "موتـا" ومـن لـف جمعـه ... وفيهـــا نهـــاب قســـمة غيـــر عـــاتم
تبعنـــاهم حتـــى أووا فـــي شـــعابهم ... نقـــتلهم قتـــل الكـــلاب الجـــواحم
كـــأنهم فـــي واج روذ وجـــوه ... ضـــئين أصـــابتها فـــروج المخـــارم

---

[1]– النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 241– 242.

[2]– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج04، ص 08.

[3]– الطبري: تاريخ الطبري،تح صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج 03، ص26 .

الرثاء:

والموضوع الثاني من الموضوعات القديمة في شعر الفتح هو الرثاء، وهو غرض مستقل من أغراض شعر الفتح مقصود لذاته، وهو كشعر الجهاد تمجيد لبطولة الذين استشهدوا، وإشادة بفعالهم، ومواقفهم، والبكاء عليهم، وافتدائهم، وتعداد مآثرهم, وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلي فيما يشيع فيه من الحزن والأسى، وما يغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقيد، فإنه يختلف عنه فيما يمتلئ به من روح التسليم بالقضاء، والامتثال لإرادة الله وحسن تقبلها، وتمثل ما أعده الله للشهداء من جزاء عظيم، كهذا الاستسلام الذي يبدو في رثاء أبي عامر بن غيلان لولده، الذي خرج غازيًا وأدركه طاعون عمواس؛ إذ يترجم الآية الكريمة: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان} [الرحمن: ٢٦] في قوله:

عينـــي تجـــود بـــدمعها الهتـــان ... ســـحا وتبكـــي فـــارس الفرســـان

لـــو أســـتطيع جعلـــت منـــي عـــامرا ... تحـــت الضـــلوع وكـــل حـــي فـــان

وكهذا التسليم الذي يشيع في رثاء أبي الحباب –ذريح بن الحارث– لولده الذي استشهد في قتال الفرس، فيشبهه بالشهاب الذي خمد، ويشيد ببلائه في القتال، وانعدام نظيره في الفرسان إلى يوم الدين، لكنه يعود إلى اليقين بأن لكل أجل كتاب فيقول:

أبغـــي الحبـــاب فـــي الجهـــاد ولا أرى ... لـــه شـــبها مـــا دام لله ســـاجد

وكـــان الحبـــاب كالشـــهاب حياتـــه ... وكـــل شـــهاب لا محالـــة خامـــد

ويتجلى هذا التسليم بقضاء الله في صورة رائعة في قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، الذي فقد بنيه الخمسة في طاعون بمصر؛ إذ يبكيهم بكاء مرًّا، مظهرًا أسفه البالغ على فقدهم، ويذكر حمايته لهم ودفاعه عنهم، ولكنه لم يجد شيئًا أمام مناياهم التي حمت، فيقول:

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع ... والـــدهر لـــيس بمعقـــب مـــن يجـــزع

أودى بنـــيّ وأعقبـــوني حســـرة ... بعـــد الرقـــاد وعبـــرة لا تقلـــع

فغبـــرت بعـــدهم بعـــيش ناصـــب ... وإخـــال أنـــي لاحـــق مســـتتبع

ولقـــد حرصـــت بـــأن أدافـــع عـــنهم ... فـــإذا المنيـــة أقبلـــت لا تُـــدفَع

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ... ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

لا بـــد مـــن تلـــف مقـــيم فـــانتظر ... فبـــأرض قومـــك أم بـــأخرى المصـــرع

ولقـــد أرى أن البكـــاء ســـفاهة ... ولســـوف يولـــع بالبكـــا مـــن يفجـــع

ولتـــأتين عليـــك يـــوم مـــرة ... يبكـــي عليـــك مقنعًـــا لا تســـمع

وتجلـــدي للشـــامتين أريهـــم ... أنـــي لريـــب الـــدهر لا أتضعضـــع

فمدافعة المنون عبث، والجزع أمام صروف الدهر لا قيمة له، وعلامَ يجزع وهو لاحق بهم لا محالة؟! فليس أحد بخالد، وقد حاول الدفاع عنهم وضاعت جهوده سدى، فالمنايا لا تدفع، ولكل إنسان مصرع لا يعلم زمانه ولا مكانه والبكاء سفاهة؛ إذ لا قيمة له، والباكي سوف يُبكى عليه يومًا ما.

وفضلًا عن هذه الروح الإسلامية نجد اعتزازًا كبيرًا بما أعده الله للشهداء من ثواب وأجر، كما في قول من رثَى شهداء المسلمين الذين دفنوا في القادسية بمشرق؛ إذ قال:

جـــزى الله أقوامًـــا بجنـــب مشـــرق غـداة دعـا الـرحمن مـن كـان داعيـا
جنابًـا مـن الفـردوس والمنـزل الـذي يحـل بـه م الخيـر مـن كـان باقيـا

ولعلنا لا نجد في الشعر العربي قصائد كثيرة تشبه القصيدة الرائعة التي رثى بها كثير بن الغريزة النهشلي الذي كان بجيش الأقرع بن حابس التميمي شهداء جوزجان والطالقان، ورثى بها نفسه رثاء رائعًا، يذكرنا بقصيدة مالك بن الريب في فتح خراسان، وهي تجري على هذا النمط:

ســـقى مـــزن الســـحاب إذ اســـتقلت مصـــــارع فتيـــــة بالجوزجـــــان
إلـــى القصـــرين مـــن رســـتاق خـــوط أقـــــادهم هنـــــاك الأقرعـــــان
ومـــا بـــي أن أكـــون جزعـــت إلا حنـــين القلـــب للبـــرق اليمـــاني
ومحبـــور برؤيتنـــا يرجـــى الـــ ـــلقاء ولـــن أراه ولـــن يرانـــي
ورب أخ أصـــاب المـــوت قلبـــي بكيـــت ولـــو نعيـــت لـــه بكـــاني
دعـــاني دعـــوة والخيـــل تـــردى فمـــا أدري باســـمي أم كنـــاني
فكـــان إجـــابتي إيـــاه أنـــي عطفـــت عليـــه خـــوار العنـــان
وأي فتـــى إذا مـــا مـــت تـــدعو يطـــرف عنـــك غاشـــية الســـنان
فـــإن أهلـــك فلـــم أك ذا صـــدوف عـــن الأقـــران فـــي الحـــرب العـــوان
ولـــم أدرج لأطـــرق عـــرس جـــاري ولـــم أجعـــل علـــى قـــومي لســـاني
ولكنـــي إذا مـــا هـــايجوني منيـــع الجـــار مرتفـــع البنـــان
ويكرهنـــي إذا استبســـلت قرنـــي وأقضـــي واحـــدًا مـــا قـــد قضـــاني
فـــلا تســـتبعدا يـــومي فـــإني سأوشـــك مـــرة أن تفقـــداني
ويـــدركني الـــذي لا بـــد منـــه وإن أشـــفقت مـــن خـــوف الجنـــان
وتبكينـــي نـــوائح معـــولات تـــركن بـــدار معتـــرك الزمـــان
حبـــائس بـــالعراق منهنهـــات ســـواجي الطـــرف كـــالبقر الهجـــان
أعـــاذلتي مـــن لـــوم دعـــاني وللرشـــد المبـــين فاهـــدياني
وعـــاذلتي صـــوتكما قريـــب ونفعكمـــا بعيـــد الخيـــر وإن

فـــــردا المـــــوت عنـــــي إن أتـــــاني ولا وأبيكمـــــــــــــا لا تفعـــــــــــلان

فالشاعر جزع على هؤلاء الشهداء، الذين لاقوا مصارعهم في هذه البلاد النائية، وزاد في جزعه أيضًا أنه يحن وقد رأى ما رأى إلى موطنه وإلى من خلفهن في العراق، وهو يشعر بأنه لن يلقاهن، ويتضاعف حنينه وفزعه عندما يقابل بين ما حدث لهؤلاء الفتيان وما يمكن أن يحدث له هو الآخر، فليس هناك فرق بين أن ينعى إليه أخ أو أن ينعى هو إليه. وماذا يمكن أن يفيده الجزع وقد قام بواجبه على أتم وجه، وأدى ما استطاع، وقدم كل ما يملك لهذا الأخ الذي استنجد به في المعركة في بسالة لا نظير لها، فلا ضير إذا هلك، فهو شجاع لا يجبن عن ملاقاة الأقران، عفيف لم يمتد طرفه إلى عرس جاره، ولم يؤذِ أحدًا من قومه، وهو منيع الجار، لا يقبل الضيم، وإذا أهيج يكرهه خصمه إذا لاقاه لصلابته وفتكه، وهو الآن يشعر بدنو أجله، ويحس أنه عما قريب مفتقد، فسوق يدركه الموت الذي لا مفر منه، ولن يشفع له حبه الحياة، وآنذاك سوف تعول نائحات ساجيات الطرف عليه في العراق .

موضوعات جديدة في شعر الفتوح:

لشعر الفتوحات الإسلامية منظومات فيها تجديد في الموضوعات هذه الموضوعات الجديدة التي عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعية لحياة الفاتحين في بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم.

أ- **شعر الحنين:** يجعل الدكتور النعمان شعر الحنين في المرتبة الأول من الموضوعات الجديدة التي استحدثها شعراء الفتوح فيقول:"وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعني به ذلك الشعر الذي يعبر عن أشواق الشاعر التي كانت تملأ جوانبه، وعن المواجع التي كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذي يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان"[1]. فقال:

أقمريـــة الـــوادي التـــي خـــان إلفهـــا مـــن الـــدهر أحـــداث أتـــت وخطـــوب

تعـــالي أطارحـــك البكـــاء فإننـــا كلانـــا بمـــرو الشـــاهجان غريـــب

ويفسر الدكتور حسين علي عبد الحسين الدخيلي القمرية هنا تفسيرا آخر يقول:" فالقمرية هنا ليست الحمامة التي ترمز للوفاء والإخلاص، وإنما المرأة والزوجة خاصة التي يبغي الشاعر الوصول إليها ومطارحتها البكاء وألم الفراق، فكلاهما غريبان الشاعر غريب الوطن والأحبة، والزوجة غريبة لا معيل لها بعد زوجها الذي فارقها""[2].

---

[1]- النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 254.

[2]- علي عبد الحسين الدخيلي: البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام،دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع،عمان،الأردن، 2010، ص 124.

ويقول النعمان عبد المتعال القاضي:" وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفزع إلى طبيعة دياره التي خلفها وراءه، عندما يعاني من قسوة أجواء هذه المناطق النائية وبردها وثلجها، فيتحسر على دفء موطنه، كهذا الشاعر الذي راح يذم جو مرو، ويتمنى جو العراق في بره وبحره"[1]؛ إذ يقول:

وأرى بمـــرو الشـــاهجان تنكـــرت أرض تتـــابع ثلجهـــا المـــذور
أســفي علـــى بـــر العـــراق وبحـــره إن الفـــؤاد بشـــجوه معـــذور

وإن كان هذا الشاعر يذم برد مرو شوقًا إلى دفء العراق، فإن شاعرًا آخر من الفاتحين يضيق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه، ويتنسم برد رياح نجد، وطيب مناخه، ضائقًا بغربته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه، فيقول:

أتبكـــي علـــى نجـــد وريـــا ولـــن تـــرى بعينيـــك ريـــا مـــا حييـــت ولا نجـــدا
ولا مشـــرفا مـــا عشـــت أقفـــار وجـــرة ولا واطئًـــا مـــن تـــربهن ثـــرى جعـــدا
ولا واجـــدًا ريـــح الخزامـــي تســـوقها ريـــاح الصـــبا تعلـــو دكـــادك أو وهـــدا
تبـــدلت مـــن ريـــا وجـــارات بيتهـــا قـــرى نبطيـــات يســـمينني مـــردا
ألا أيهـــا البـــرق الـــذي بـــات يرتقـــي ويجلـــو دجـــى الظلمـــاء ذكرتنـــي نجـــدا
ألـــم تـــرَ أن الليـــل يقصـــر طولـــه بنجـــد وتـــزداد الريـــاح بـــه بـــردا

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صورًا مختلفة، فنجد يقصر الليل فيه وتزداد رياحه بردًا، ولكنه في غربته يزداد طولًا وقيظًا.وهذا ورد بن الورد في رامهرمز يحن إلى حبيبته وديارة في بني كعب، فيصور فؤاده مصعدًا مع المصعدين إلى أرض الوطن، ولا يجد خيرًا في الدنيا إذا لم يزر فيها حبيبه فيقول:

أمغتربـــا أصـــبحت فـــي رامهرمـــز ألا كـــل كعبـــي هنـــاك غريـــب
إذا راح ركـــب مصـــعدون فقلبـــه مـــع المصـــعدين الـــرائحين جنيـــب
وإن القليـــب الفـــرد مـــن أيمـــن الحمـــى إلـــى وإن لـــم آتـــه لحبيـــب
ولا خيـــر فـــي الـــدنيا إذا لـــم تـــزر بهـــا حبيبًـــا ولـــم يطـــرب إليـــك حبيـــب

وراح بعض الشعراء يبكون حظهم الذي ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية، حتى ليضيقون بالقتال والحرب فيها، ويصرحون بهذا في شعرهم، كما فعل هذا الجندي الذي يقول:

تبـــدلت مـــن نجـــد وممـــن يحلـــه محلـــه جنـــد مـــا الأعاريـــب والجنـــد؟
وأصـــبحت فـــي أرض الجنـــود وقـــد أرى زمـــاني بـــأرض لا يقـــال لهـــا بنـــد

---

[1]– **النعمان عبد المتعالي القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ، ص 254.**

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحية نجد، برغم أنه لا يرى شيئًا، ولكنه ينظر حنينًا إليها وإلى خيامها التي يقصر عنها الطرف، وبرغم ألا نفع في نظره فلا يزال ينظر، ثم تجري عبراته تتحدر هكذا كل يوم، وهكذا لا يستريح قلبه، فإما مجاهد في غزاة، أو ناء يتذكر يقول:

أكـــرر طرفـــي نحـــو نجـــد وإننـــي ... برغمـــي وإن لـــم يـــدرك الطـــرف أنظـــر
حنينًـــا إلـــى أرض كـــأن ترابهـــا ... إذا أمطـــرت عـــود ومســـك وعنبـــر
بـــلاد كـــأن الأقحـــوان بروضـــه ... ونـــور الأقـــاحي وشـــى بـــرد مجيـــر
أحـــن إلـــى أرض الحجـــاز وحـــاجتي ... خيـــام بنجـــد دونهـــا الطـــرف يقصـــر
ومـــا نظـــري فـــي نحـــو نجـــد بنـــافع ... أجـــل لا، ولكنـــي إلـــى ذاك أنظـــرأ
فـــي كـــل يـــوم نظـــرة ثـــم عبـــرة ... لعينـــك مجـــرى مائهـــا يتحـــدر
متـــى يســـتريح القلـــب إمـــا مجـــاوز ... بحـــرب وإمـــا نـــازح يتـــذكر

وفي مثل هذه الظروف القاسية الموحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى أن يهرب إلى الطبيعة يبثها آلامه وأحزانه، ولا يزال الشعر الذي قيل في نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة ولجوئه إليها، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشة قلقًا يتهدد حياته، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله.

خصائص شعر الفتوح :

يمكن تلخيص سمات شعر الفتوح بما يأتي :

1- اشتماله على معاني والقيم الإسلامية والالتزام بروح العقيدة.

2- الإيجاز والقصد إلى الفكرة، بدون إسهاب أو مقدمات كما هو الحال في الأغراض الشعرية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

3- التزام الشاعر بوحدة الموضوع، فجلُّ شعر الفتوح مقطّعات شعرية لا تحتوي الواحدة منها على أكثر من غرض واحد.

4- اتِّسام الشعر بالعفوية الصادقة لأنه يعّبر عن الروح الجهادية.

5- السهولة والوضوح، والخلّو من الصنعة والتكلّف.

6- التعبير عن الروح الجماعة الإسلامية التي ذابت فيها العصبيات القبلية، وانصراف الشعراء إلى رفع راية الإسلام خفاقة.

7- اشتمال شعر الفتوح على أخبار الجيوش، وحركاتها، وانتصارتها، والقبائل التي شاركت فيها، وعلى عادات البلاد المفتوحة، وتقاليدها، وأديانها، والخطط الحربية، وسير المعارك، والبطولات الفردية، أو الجماعية، وأسباب النصر أو الهزيمة. فهي على هذا الأساس تعد سجلاً تاريخياً حافلاً بأخبار فترة مهمة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

وبعد، فإنّ قيمة شعر الفتوح تنبع من كونه التعبير الأدبي عن الحياة الإسلامية في عصر صدر الإسلام، إذ صوّر الأثر الذي تركه الإسلام في نفسيّة العربي، كما رسم صورة رائعة للانطلاقة المباركة التي تمثّلت في الفتوحات الإسلامية.